الفصل الخامس

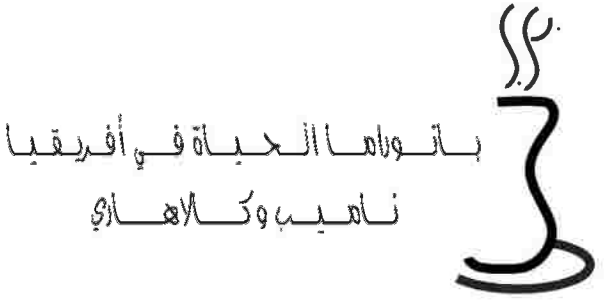

(1)

كيف تتكيف الأحياء مع قساوة الطبيعة؟

تمتد (ناميب) إلى الجنوب الغربي من أفريقيا -مدار الجدي - على مساحة تزيد على (50) ألف ميل مربع من الرمال التي تهب عليها الرياح فتتحرك في زوابع تشتد أحيانًا حتى تتغطى مساحة شاسعة منها بالعجاج المتحرك.. إنها أقدم صحراء في العالم وأكثرها جفافًا ورغم ذلك فهي لاتخلو من الحياة، فحينما تموت الريح وتهجع الرمال، تبدو آثار الأقدام الصغيرة على الرمال، كائنات متباينة بالحجم والشكل والنوع، تكيفت وعاشت منذ ملايين السنين في تلك الصحراء التي تبدو الحياة فيها مستحيلة. والكائنات التي تعيش هناك لها أجهزة خاصة للتكيف، وتتحرك بسهولة ويسر، حينما تهجع الرياح، وحركتها سريعة، وسرعان ماتختفي في طيات الرمل.

فالنمل يتحرك فوق الرمل الناعم.. وتدخل النملة جسمها بادئة بالرأس ثم الأطراف في الرمال.. وكذلك تفعل العناكب..

أما أبو بريص فيدفن رأسه أولًا ثم يدخل جسمه معتمدًا في شق الرمال على أطرافه، أما الحية المائلة التي تتحرك على جهة جاذبية فتترصد أبوبريص لصيده لأنه يعتبر غذاء رئيسيًا لها وهو يخافها ويختفي حالما يشعر بقدومها، ولكنها تلجأ لحيلة لاصطياده إذ تدفن جسمها في الرمل وترفع ذنبها حتى ليبدو كنبتة صغيرة ورغم أن (أبو بريص) لايحب النباتات إلا أن النمل يتجه نحو الذنب معتقدًا أنه نبات

فينقض عليه (أبوبريص) وفي تلك اللحظة يأتي دور الحية التي تتحرك بسرعة لتبتلع أبوبريص.

وفي أطراف هذه الصحراء الحمراء تعيش ظباء (المارية) أجمل الظباء في العالم حيوانات مدهشة تسعى دائمًا لإيجاد الطعام الكافي الذي يؤهلها للعيش في منطقة تبدو خالية من الماء والغذاء وظلت هذه الحيوانات الجميلة بمنأى عن الخطر، لأن الإنسان يهوله هذا الفراغ الشاسع فلا يجازف بالمجيء إليه . وهو يبدو رغم قساوته كجنة حقيقية لبعض الحيوانات . وعلى حدود الصحراء الحمراء أو ناميب الحمراء تمتد ناميب البيضاء التي تبدو أرضها شبيهة بأرض القمر، إذ تجد العين جمالًا أخاذًا أما الفم فمن الصعب العثور على طعام يسكته ومع ذلك فظباء (الماريه) تجوب بطاح (ناميب البيضاء) تسرح وتمرح دون أن يعكر صفوها أحد..

وعلى سفوح الجبال القريبة تعيش قرود (البابيرا) طويلات الذيل، وهي لاترضى عن محيطها بديلًا، الصخور القاسية عندها، أجمل وسائل الراحة، والنظام الاجتماعي عندها يقوم على الزعيم الذي له الحق في الفصل في العراك والمشاحنات، وعلى مجموعة من القرود القوية التي تدور حوله بسلطات أقل من سلطته على الجميع وفي أسفل السلم عند (البابيرا)، الصعاليك، وهي القرود التي لاتهتم بالنظام ولابالزعيم.. وأغلب هؤلاء من القرود القوية بعضلات مفتولة ويستعرضون فتوتهم باللعب والشقلبة متى خف الحر.

الشجر قليل في صحراء ناميب ولكنه موجود.. وحيث يوجد، يعيش طائر (الحباك) يبني الأعشاش بعضها إلى جانب بعض وتعيش في هذه الأعشاش مئات العائلات وهناك أنواع كثيرة من أشكالها منها التركب والمرتفع والمتماسك والمكور والشبيه ببيت المزارع والفني المزخرف بالقش الملون.. بعض هذه الأعشاش يزيد عمرها عن مائة عام. تأتي الطيور الوافدة أحيانًا فتبني أعشاشًا إلى جانب أعشاش طائر الحباك وتتعاون عائلات الطيور مع بعضها في جعل الشجر يصلح للحياة ولكن الكارثة قد تقع، نقطة ندى تتجمع فوقها نقاط أخرى فتعكس القطرة المتجمعة ضوء الشمس - تمامًا كالعدسة - حيث يحترق القش الجاف خلال دقائق وتلتهم النيران الأعشاب مسببة مآسي كبيرة على الطيور الجميلة المتألقة..

ويمتد الجفاف، وتمثل صحراء (ناميب) خطرًا على أفريقيا الخضراء أنه خطر زاحف عريض يخلف وراء مناطق قاحلة كانت مسكنًا للظباء ومرتعًا للخضرة ويستمر الجفاف بالزحف البطيء.. وعلى الحيوانات التي تعيش هناك أن تتكيف منذ عشرات الآلاف من السنين مع طقس تقل أمطاره سنة عن أخرى. وقد انقرضت نباتات كثيرة لم تستطيع أن تتكيف مع الجو الجاف رغم أنها استمرت في الحياة لملايين السنين.. وماتبقى منها يبدو متجهًا للشمال أشبه بإنسان ينتظر الفرج من جهة قد يأتي منها..

إن زهرة (السانتيلا) قد تكيفت مع الجو الصعب ولأن النحل غير موجود هناك (وهو يساعد في تلقيح الأزهار) وبدلًا من رائحة جميلة

تجذب النحل تفرز (السانتيلا) رائحة كريهة كرائحة الجثث المتفسخة – ولاشيء منه في الزهرة –ولكن حركة الذباب تكون كافية لنقل غبار الطلع وبالتالي التلقيح..

بعد عدة أسابيع من التلقيح تنمو البذور وتتكون.وبعد أن تموت (السانتيلا) تحمي بذورها من الجفاف حتى يحين موعد المطر بعد أشهر طويلة، حيث تتفتح النباتات الميتة كمخلوقات غريبة متحركة، وتنبعث الرطوبة من داخل الجيوب حيث تنشر البذور بأصوات طقطقة غريبة هنا وهناك.

*** ومن بين الحيوانات التي تعيش في ناميب نجد الأنواع التالية:**

- آكل النمل الذي يبدو بدرعه المحرشف أشبه بفارس من القرون الوسطى، الخنزير البري الذي يعيش مع أسرته بحب ووئام وله طقوس غريبة مع أنثاه وصغاره وهو يحافظ بقوة على أسرته في مختلف الظروف.

- الشيهم الشوكي الذي ينظم الدخول والخروج من الوكر – العقرب بأنثاه التي تحمل صغارها على ظهرها – والحرباء الملونة المرقطة التي تغير لونها حسب الفصول والتربة، وهي المخلوق الوحيد الذي لاتعلم عينه اليسرى ماترى عينه اليمنى..

- الديكوب وهو طائر أشبه بالبط ولكن منقاره أكبر ورجلاه أكثر طولًا، يبدو كطائر محنط لايتحرك ولاتطرف له عين وإذا تحرك فللمحة خاطفة ثم يتجمد من جديد وهو يقضي 95 ٪ من حياته على هذا الجمود – وهناك النعامة والزرزور وحمام الوحش والزرافة والأسد.

هناك أيضًا الضبع هذا الحيوان ذو المؤخرة الضعيفة الواطئة والحركة البشعة.

والضبع جامع قمامة يتعيش على مايصيده الآخرون وتنبعث منه رائحة كريهة وهو جبان أيضًا ولئيم يسيل لعابه دائمًا ويتمرغ بالجثث والأشلاء، ليخفي برائحتها رائحته وهو غير قانع بذلك يلاحق صغار الحيوانات كلما وجد سبيلًا لذلك. وهو - لكسله - قد لايتمكن من مطاردة صغير سريع الحركة - كالقرد مثلًا - ولكنه يحاول الهجوم على صغار البط أو صغار النعام. وبطة (المنقار) مثلًا تلجأ بحيلة لإبعاد الضبع عن صغارها فحين تشعر باقترابه تفسح مجالًا لصغارها ليختبئوا. ثم تلجأ للتمثيل المتقن فتتظاهر بأنها مصابة مشرفة على الموت، فيلاحقها الضبع وتستمر تمثل وهي تقفز وتتعثر حتى تقترب من الماء، والضبع يتابعها بإلحاح ولعابه يسيل، ويكون صغارها قد ابتعدوا قليلًا، تندفع نحو الماء، وتتظاهر بالغرق. ويلاحقها الضبع. تسبح قليلًا فيشك بما يراه ويتوقف ولكنها تتابع تخبطها كالمصابة فيقترب منها سابحًا في حين يصل الفراخ إلى مكان آمن وحين تشعر أن صغارها ابتعدوا عن الخطر تنتفض قافزة بكل قوة مبتعدة عن الضبع الذي يحس بالخيبة ويتساءل هل خدعته حقًا؟

أما النعام، فالأنثى رمادية اللون، والذكر ملون بالبني على ظهره وجناحيه والأبيض على بقية جسمه، وهو شيطان ظريف ينفش ريشه في فصل التزاوج ويتبختر أمام أنثاه لبلفت انتباهها. وحتى يفوز بها، عليه أن يقاتل الذكور الآخرين، وبعد أن ينجح في ذلك، يرقصان معًا رقصة جميلة متناسقة.. وبعد فترة من التزاوج تبيض.. النعامة عدة

بيضات تتركها للذكر ليحرسها. تمامًا كما يفعل ذكر البطريق، مع الاختلاق في أن ذكر النعام لايرقد عليها وإنما يحرسها، ومهمة ذكر النعام ليست سهلة، لأن البيضة الواحدة تعني وجبة كاملة دسمة لأي حيوان. وشذاذ الآفاق كثيرون قد يأتي قرد صغير محاولًا سرقة بيضة يتصدى له الذكر بإلحاح وقوة. حتى يتركها ويهرب وقد يقترب أحد رجال القبائل التي تعيش في (ناميب) متنكرًا بمظهر نعامة.يضع ريشًا على ظهره، ويرفع عصا عليها رأس نعامة، يراقبه الذكر عن بعد بغباء شديد ولكنه يكتشف أنه مزيف حينما يقترب كثيرًا فيطارده ويبعده عن المنطقة، ويفقس البيض أخيرًا ويخرج الصغار. وإذا انشغلت الأم بمشكلة فإن على الفرخ أن يموه نفسه من الأعداء،ويحاول الخلاص وحده، والأم بعيدة عنه مع بقية عشيرتها.. إذا كان الفرخ هو الوحيد الذي خرج مبكرًا من البيض، يحاول أن يجد له رفيقًا، وقد يصادف ضبعًا جائعًا وينجح الفرخ بالتنكر ولكن إلى حين، حتى يأتي الأب لنجدته والعودة به..

ولعل هر (المير) وصغاره، من أكثر المخلوقات اللطيفة التي تعيش في صحراء (ناميب) وشكله أشبه بالسنجاب، وهو فضولي مع صغاره أيضًا، يستقبل بالترحاب أي زائر يمر بمنطقته، التي يعيش بها حتى الخلد الشوكي والكوبرا، ويبتعد الخلد الشوكي متقبلًا المداعبة، ولكن الكوبرا لاتتقبل الفضول والمداعبة، إذ سرعان ماتهاجم صغار (المير) ولكنهم لايهابون إذ يتخلصون من محاولاتها بليونة ويسر.. وإذا نجح هر المير في العثور على بيضة طير كبير للغذاء يضيع وقتًا كبيرًا في محاولاته ليكسرها ويأكل مابداخلها دون نتيجة.

رغم أن النمس الذي يشبهه في الشكل -يضربها بحجر أمامه ليكسرها ولكن صغير المير لايتعلم الدرس إلا بعد جهد.

وهناك نوع من الأفاعي، آكلة البيض، تعيش في تلك الصحراء، يمكنها أن تبتلع بيضة حجمها عشرة أضعاف حجم فم الأفعى، إذ تفضل حنكها عن الرأس وتفتح شدقها وتحصر البيضة بجسمها وتبدأ ببطء عملية البلع حيث تدخل البيضة إلى داخل جوفها، وحصارها لها يجعلها لاتنزلق عند البلع وبعد أن تتم رحلة البيضة الصعبة إلى داخل جوف الأفعى تكسرها وهي تتمطى ثم تمتص مابداخلها وتلقي القشرة من فمها إلى الخارج.

وهذا النوع من الأفاعي لايحوي أسنانًا في أفضل لذلك فهو أضف أنواع الأفاعي، ولكن الطبيعة علمته أن يكون متوحشًا لدرجة أنه يخيف الفيلة لأنه يحرك جسمه.. وتضرب حراشف جلده ببعضها بسرعة فتصدر صوتًا ينذر بالويل والثبور.. .. بشراسة، وهذا الصوت والحركة السريعة ينجحان حتى في الخلاص من الفيلة، التي تتجنب مثل هذا النوع من الأفاعي..

ولكن القرد الذي يبحث أحيانًا عن غذائه تحت الحجارة يعثر على أفعى البيض ذات الصوت المخيف فتهاجمه فيغمى عليه من الخوف وحين يستيقظ قد يعاود الهجوم مرات ومرات.

إن بانوراما الحياة في ناميب الصحراء الأفريقية المترامية الأطراف هي بانوراما طريفة مثيرة بدأت رحلات البحاثة إليها قبل أعوام فقط تكتشف فيها أنواعًا جديدة من الحياة لم تكن المعلومات متوافرة عنها

من قبل.. حتى الأحياء المائية التي تعيش في أعماق نهر (كافانغو) الذي يخترق الصحراء ويصب في رمالها خلافًا لكل الأنهار الأخرى التي تصب في البحر.. فيه تعيش التماسيح وأفراس النهر والأسماك وفوق سطحه تتحرك مئات الأنواع من الطيور.. وتبدو الحياة في تلك الصحراء القاسية في وقت من الأوقات أشبه بفردوس حقيقي..

(2)

الحياة في صحراء كالاهاري

وفي ناميب الصحراء الأفريقية التي تعد من أقدم وأجف صحراء في العالم وذات المساحة الشاسعة الممتدة إلى 50 ألف ميل مربع من أفريقيا بخترقها مدار الجدي. في هذه الصحراء العجيبة، يخترق نهر (كافانغو) رمالها وخلافًا لكل الأنهار لايصب في البحر بل تبتلعه الرمال بكميات كبيرة، تعيش في هذا النهر، حيوانات كثيرة من بينها التمساح والأسماك وفرس النهر، على شاطئه تعيش الفيلة والطيور بأنواعها ومنها طيور صغيرة تمشي على ورق الزنبق الذي يسبح فوق سطح النهر وتبدو الحياة في بعض أشهر السنة فردوسًا حقيقيًا يجيش بالحركة والنشاط.

في أعماق النهر تعيش أسماك (البريم) التي تبيض نحو ألف بيضة، يخرج منها ألف سمكة تسبح حول أمها، والأب يراقب هذه الكائنات الصغيرة وينذر الأم بالخطر إن اقترب عدو، حيث تندفع هذه السمكات

الصغيرة، بأعدادها الكبيرة، لتدخل في فم الأم إلى الجوف، وحين يأتي العدو (ناتئ السن) لايرى شيئًا حول (البريم) إذ تبتلع الأم كل صغارها ويحاول (ناتئ السن) أن يجد صغيرًا دون نتيجة وحين يبتعد يخرج الصغار بعد أن تقذفهم الأم إلى الخارج ورغم محاولة بعضهم العودة، في غابة (الكافانغو) الطعام متيسر للجميع ولاخطر إلا وقت الجفاف حيث تقل مياه النهر، وأحيانًا تنعدم في بعض المناطق، وتجف الزهور وتذبل النباتات التي تحتفظ بالبذور لموسم المطر القادم.

الشيء المثير الذي يحدث للحيوانات في (الكافانغو)، عندما يأتي الصيف وتنضج ثمار (المارولا) وهي ثمار لذيذة جدًا يأكل منها القرد، ويحك الفيل ظهره بجذعها فتتساقط، وتأمل منها كل الحيوانات من الزرافة والفيل والنعام والخنزير والغزال والقرد.. وفي معدات تلك الحيوانات تتخمر تلك الثمار، وحينها تحصل أمور طريفة إذ تبدو الحيوانات وكأنها سكرى، لاتحس بما حولها، تتمايل وتقع وتتعثر أحيانًا وتقوم بحركات مضحكة، وحين تصحو بعد يوم كامل، تعود إلى طبيعتها، وليست كل الحيوانات متلافة تسكر في منطقة الكافانغو، فطائر الحباك يبني عشه بأناقة،وحين ينتهي منه يدعو الأنثى إليه. وكثيرًا ماترفضه بل وتفكه باحتقار، أما ازدراء طريقة حياكته أو لموقعه غير الجيد بالنسبة لها ويتعذب الحباك من جديد ليحيك عشًا آخر وربما كرر العملية عدة مرات حتى ترضى أنثاه.

أما الخنازير فتتعلق بأمها دائمًا وقد يفلت أحدها يتبعه حيوان مفترس – كالفهد مثلًا – وينجح في الهرب والاختباء في وكر يصادفه مهجورًا، ولكنه يبتعد كثيرًا عن عائلته ويحاول أن يعثر على صديق

ولكن الحيوانات لاتتقبله وفي الليل يتظاهر بأنه حجر، ويقترب من الحيوانات كالغزال، وحتى القنفذ الشوكي، ولكن الجميع ينفرون منه، وقد تمر أيام يقاسي فيها الضنى والعذاب حتى يعثر على أمه.

وقرب صحراء ناميب هناك صحراء كالاهاري على مدار الجدي أيضًا.

وبعد الشتاء القصير فيها تبدو كفردوس أشبه بفردوس الكافانغو، العشب يرتفع ليصل لطول الفيل أحيانًا، والغذاء متوافر لجميع الحيوانات من حمر الوحوش إلى الجواميس والغزلان.

وفي بعض السنوات تتشكل بحيرة آنية من مياه المطر تتجمع حولها طيور الماء بأعداد كبيرة، وتغطي البحيرة أحيانًا مساحة هائلة تقارب ثمانية آلاف ميل مربع. وقد ترى قطعان البجع وهي تمشي في أساطيل صغيرة حيث تسوق السمك إلى حيث يتجمع صغارها ولكن البحيرة وحفر الماء لاتدوم كثيرًا إذ ينقطع المطر لمدة تسعة أشهر تقريبًا وتفيض المياه في الرمال.

بضعة أناس يطلق عليهم اسم البوشمان يعيشون في صحراء كالاهاري الواسعة لايعيشون في قبائل بل في أسر صغيرة ولاتساع المنطقة لاتلتقي تلك الأسر مع بعضها، يعيشون بلا هم ولا غم لأنهم لايملكون شيئًا يتقاتلون عليه وهم من أرق الناس في طباعهم ربما لأنهم لم يروا ماهو شرير في هذه الصحراء الواسعة وحيث يعيشون لايوجد سوى الرمل والعشب والشجر والحيوانات بهذا فأدوات

حياتهم مصنوعة من الجلد والعظام والخشب ومتى وجدوا الطعام يأكلونه دفعة واحدة وهذا ماوسع معداتهم.

عنديوم البوشمان لاتمس رؤوسهم الأرض لأن في الرمال زواحف قد تدخل آذانهم يغرسون مرافقهم في الرمال ويتخذون من مناكبهم وسائل راحة كالوسائد.على الصغار أن يتعرفوا على الحيوانات حولهم وبعض الرجال يقلدون حركات الحيوانات ليعلموها لهم، يبدون بطونهم الكبيرة الممتلئة بالطعام الذي يأكلونه دفعة واحدة وبأعناقهم الطويلة ورؤوسهم الصغيرة، حجومهم الضئيلة تجعلهم أشبه بكائنات من كوكب آخر.

سلاح البوشمان ضعيف لذلك يجب أن يقترب من طريدته كثيرًا حتى يسهل عليه صيدها وهو يصطاد حمار الوحش أو الغزلان وهناك طير مناكد يشبه الببغاء يعيش في منطقة البوشمان ويعتبرمن مصادر الإزعاج الفريدة لأولئك البدائيين فحين يقترب البوشمان من طريدته يكون ذلك الطير المناكد فوق غصن شجرة عال يراقبه بفضول، وكلما أصبحت الطريدة تحت الخطر أطلق صوته الزاعق ينبهها فتنفر سريعًا هربًا من صيادها من البوشمان.

ويكرر الطائر المناكد العملية عدة مرات وحين لاينجح البوشمان في الصيد ينتقم من الطائر فيصيده ويشويه على النار.

وللبوشمان عادات فريدة وهم مسالمون وديعون لايؤذون أحدًا يعيشون في عزلة عن العالم ومشاكله ومتاعبه وصراعاته الدامية.